مقال

الإدارة الصفّيّة الفعّالة وأثرها في الصفّ

مجد مالك خضر

تعدّ الإدارة الصفّيّة الفعّالة من الركائز الأساسيّة في البيئة التعليميّة، إذ تؤكّد على أهمّيّة أن تكون لدى المعلّم المهارات اللازمة التي تمكّنه من توجيه الطلّاب نحو تحقيق الأهداف التربويّة والتعليميّة.

ولا تعني الإدارة الصفّيّة فرض المعلّم الصمت المطبق على الطلّاب في الصفّ، بل تعني القدرة على إيجاد توازن دقيق بين الانضباط الصفّيّ والمسؤوليّة الذاتيّة لدى الطلّاب، بالتزامن مع دور المعلّم الذي يوجّههم بطريقة صحيحة، لضمان إعطائهم فرصًا متكافئة في المشاركة في تنفيذ نتاجات الدرس بصورة فرديّة أو جماعيّة.

ويستطيع المعلّم أن يحوّل الغرفة الصفّيّة إلى مجتمع تعليميّ حيويّ، يعتمد على التفاعل المستمرّ والبحث والاكتشاف والعصف الذهنيّ والاستقراء، عن طريق توظيف مهارات التواصل، ما يقلّل من حدوث المشكلات أو الفوضى داخل الصفّ، والتي تنتج غالبًا عن شعور الطالب بالملل.

ومن هذا المنطلق، يحتاج المعلّم إلى تبنّي استراتيجيّات إداريّة فعّالة، قادرة على التكيّف مع الفروقات الفرديّة لدى الطلّاب، الأمر الذي يتطلّب تدريبًا وتطويرًا لمهارات المعلّم، بما يساعده في بناء فهم واضح لسيكولوجيّة الطالب في مختلف مراحله العمريّة، وحالاته النفسيّة والاجتماعيّة.

مفهوم الإدارة الصفّيّة الفعّالة

لا تقتصر الإدارة الصفّيّة على مفهوم ضبط الصفّ فقط، بل تشمل جميع الأعمال التي ينفّذها المعلّم، من إدارة الوقت وتوزيع الجهد، بهدف توفير مناخ ملائم للتعلّم. إذ لا يمكن فصل نجاح الدرس عن جودة البيئة التعليميّة التي يقدّم فيها.

ويتحقّق النجاح في الإدارة الصفّيّة بوضع ميثاق صفّيّ تشاركيّ في بداية العام الدراسيّ، يسهم فيه الطلّاب في صياغة القواعد التي تحكم علاقتهم ببعضهم وبمعلّمهم، ما ينمّي لديهم الحسّ بالمسؤوليّة والالتزام الذاتيّ بالقوانين الصفّيّة والمدرسيّة، لأنّهم كانوا جزءًا من صناعتها.

وأستطيع أن أصوغ مفهومًا للإدارة الصفّيّة الفعّالة، وأصفها بأنّها الأنشطة والإجراءات التي يطبّقها المعلّم بذكاء في الصفّ، من أجل إيجاد بيئة تعليميّة تفاعليّة، يستثمر فيها وقت الحصّة الصفّيّة بأفضل صورة ممكنة، ويعزّز بواسطتها دافعيّة الطلّاب نحو التعلّم والتعليم.

أساليب الإدارة الصفّيّة الفعّالة

تعتمد الإدارة الصفّيّة الفعّالة على قدرة المعلّم على إيجاد بيئة تعليميّة متكاملة، ومتوازنة بين الانضباط التربويّ ومنح الطالب مساحة للمشاركة، وذلك بتوظيف مجموعة من الأساليب التي تحاكي قدرات الطلّاب وتنمّي مهاراتهم الشخصيّة. ومن الأمثلة على هذه الأساليب ما يأتي:

- التعلّم بتمثيل الأدوار: عن طريق تحويل الدروس النظريّة إلى تطبيقات واقعيّة، مثل: تقسيم الطلّاب إلى مجموعات (بائعين ومشترين) لمحاكاة عمليّة البيع والشراء في دروس التربية المهنيّة، وهو ما يمثّل الجسر الرابط بين محتوى الدرس والتطبيق العمليّ. فحين يوزّع المعلّم الأدوار بين الطلّاب، فإنّه يضع الطالب في سياق يلزمه باتّخاذ القرارات، ويقلّل من التصرّفات التي تؤدّي إلى ضياع وقت الحصّة. يسهم هذا الأسلوب بشكل مباشر في ضبط الصفّ، لأنّ تمثيل الطالب شخصيّة معيّنة ينمّي لديه مهارات متنوّعة، مثل الذكاء العاطفيّ الذي يحتاج إليه في بناء ملامح الشخصيّة التي يمثّلها، ما يبني بيئة صفّيّة يسودها التعاون بين الطلّاب.
- ألعاب الذكاء والبطاقات الملوّنة: عن طريق إعداد أنشطة تفاعليّة، مثل ربط الصور بالكلمات أو استخدام الكلمات المتقاطعة، ما يسهم في تنمية مهارات التفكير لدى الطلّاب، وتعزيز التعاون بينهم. وتعدّ ألعاب الذكاء والبطاقات الملوّنة محرّكًا لكسر الجمود في الصفّ، وتحويل المادّة العلميّة الجافّة إلى تحدّيات ذهنيّة ممتعة. فاستخدام البطاقات الملوّنة أو استراتيجيّة الكلمات المتقاطعة، لا يهدف إلى حفظ المعلومات فقط، بل إلى تدريب العقل

على التحليل والتركيب وسرعة البديهة. كما تساعد هذه الأنشطة المعلّم في تقسيم الفصل إلى مجموعات عمل صغيرة متناغمة، بحيث يتعلّم الطلّاب كيفيّة توزيع المهامّ بينهم، والالتزام بالقواعد المنظّمة للعبة، وهو ما يغرس في نفوسهم الانضباط الذاتيّ، والقدرة على العمل بروح الفريق الواحد للوصول إلى الحلّ الصحيح، ما يجعل الإدارة الصفّيّة عمليّة تشاركيّة بامتياز.

- الوسائل البصريّة: مثل استخدام الأشكال الهندسيّة في مادّة الرياضيّات، بدلًا من الرسم التقليديّ على السبورة، ما ينشّط قدرات الطلّاب على فهم كلّ شكل هندسيّ، ويزيد من رغبتهم في التعلّم والابتكار. فالوسيلة البصريّة تعمل بوصفها مرتكزًا ذهنيًّا يساعد الطالب في تصوّر المفاهيم المجرّدة وتحويلها إلى صور ذهنيّة ثابتة. هذا الأسلوب يقلّل من الفجوة المعرفيّة بين الطلّاب بناءً على نمط تعلّم كلّ منهم، ويحفّزهم على الابتكار عن طريق محاولة إعادة تشكيل هذه الوسائل، أو ابتكار نماذج مشابهة لها.
- مهارات الحوار والنقاش الجماعيّ: عن طريق فتح آفاق التفاعل الصفّيّ، وتبادل الآراء أثناء تنفيذ الأنشطة، وهو ما يجعل الطلّاب أكثر قابليّة وقدرة على التواصل الفعّال. يمثّل النقاش الجماعيّ أساسًا من أساسات الإدارة الصفّيّة الفعّالة، إذ يدرّب الطلّاب على الاستماع الإيجابيّ، واحترام آراء بعضهم بعضًا. وهذا التفاعل الصفّيّ لا يعزّز الطالب فقط، بل يبني ثقته بنفسه، فيشعر بأنّه مؤثّر في العمليّة التعليميّة، لتزداد دافعيّته إلى التعلّم، ويقلّ ميله لإحداث الفوضى، فتتحوّل الإدارة الصفّيّة من السيطرة على سلوك الطلّاب إلى احتوائهم وفهمهم، ما يخلق بيئة تعليميّة تتّسم بالإيجابيّة.

لا تقتصر أهمّيّة هذه الأساليب على إدارة الصفّ فقط، بل تشمل صقل شخصيّة الطالب، وإعطائه القدرة على التعبير عن نفسه، ما يؤدّي إلى تقليل الفروقات الفرديّة بين الطلّاب، وزيادة تفاعلهم مع البيئة التعليميّة في الصفّ وخارجه.

استراتيجيّات مساندة للإدارة الصفّيّة الفعّالة

أرى أنّ أفضل استراتيجيّة مساندة للإدارة الصفّيّة الفعّالة تتمثّل في دراسة المعلّم لنتاجات الدرس. فالإدارة الفعّالة تتطلّب توزيعًا ذكيًّا لأفكار الدرس، بالتزامن مع توظيف الوسائل التعليميّة المساندة، ما يسمح بإيصال المعلومات لكلّ طالب بسهولة ويسر.

وكثيرة الاستراتيجيّات المساندة للإدارة الصفّيّة التي أسهمت في زيادة فعّاليّتها على المدى البعيد، مثل تغيير نمط الجلوس التقليديّ للطلّاب في الصفّ إلى شكل حرف (U) أو مجموعات صغيرة، ما يقلّل من الضوضاء والكلام الجانبيّ، لأنّه يضع كلّ طالب تحت نظر المعلّم، ويجعل التواصل البصريّ مستمرًّا ومباشرًا، ويعزّز من الانتباه والتركيز.

ومن الاستراتيجيّات المساندة أيضًا توظيف إدارة الوقت بدقّة ومرونة في آن واحد، فالمعلّم الناجح مَن يبدأ درسه بطرح سؤال افتتاحيّ أو نشاط تحفيزيّ جاذب، ثمّ ينتقل بسلاسة بين فقرات الدرس، من دون ترك فجوات زمنيّة قد تؤدّي إلى تسلّل الملل، وهكذا ينجح في استثمار الوقت بأفضل صورة.

وفي المواقف التي تتطلّب الهدوء، تعدّ استراتيجيّة استخدام الإشارات غير اللفظيّة من الاستراتيجيّات المساندة المفيدة، مثل النظر مباشرة إلى الطلّاب الذين يعرقلون سير الحصّة، أو استخدام الإشارات والإيماءات لإيصال رسائل حازمة، من دون الحاجة إلى الصراخ أو رفع الصوت، ما يحافظ على هيبة المعلّم وهدوء الصفّ.

أهمّيّة التفاعل الإنسانيّ في الإدارة الصفّيّة الفعّالة

تعدّ العلاقة الإيجابيّة بين المعلّم وطلّابه أقوى أداة للإدارة الصفّيّة الفعّالة، لأنّ الطالب الذي يحبّ معلّمه ويحترمه، يكون أكثر اهتمامًا والتزامًا بقواعد الانضباط المدرسيّ، ويسعى للتميّز الأكاديميّ والسلوكيّ.

ومن تجربتي، وجدت أنّ تخصيص دقائق بسيطة في بداية الحصّة للسؤال عن أحوال الطلّاب، أو التحدّث في موضوع تمهيديّ عن الدرس، يقلّل من الرتابة والملل، ويجعل الطلّاب أكثر تقبّلًا للملاحظات، في حال وقوع خطأ يعرقل سير الحصّة أثناء شرح الدرس.

وأخبرني أحد زملائي أنّه وظّف استراتيجيّة "التعزيز الفوريّ" بتعليق لوحة الطلّاب المميّزين في الصفّ، والمصمّمة وفق

معايير محدّدة ومتّفق عليها مع الطلّاب، وقد وجد تفاعلًا ملحوظًا في الصفّ، فلم يعد الانضباط مجرّد خوف من العقاب، بل صار هدفًا للحصول على التقدير.

ومن هنا يمكن القول إنّ التفاعل الإنسانيّ يؤدّي إلى تنشيط قدرات الطلّاب الشخصيّة والتعليميّة، ويجعلهم أكثر قدرة على تنمية مهاراتهم الذاتيّة، إذ يتعلّم الطالب كيف يحترم زملاءه في الصفّ ومعلّمه وأسرته والأشخاص المحيطين به.

النتائج المترتّبة على الإدارة الصفّيّة الفعّالة

1. تعزيز التحصيل الدراسيّ

تستثمر الإدارة الصفّيّة الفعّالة وقت التعلّم بكفاءة، فعندما يقلّ التشتّت وتزداد الأنشطة التفاعليّة، مثل تمثيل الأدوار والوسائل البصريّة، ينتقل الطالب من دور المتلقّي إلى المشارك النشط. هذا الانخراط يسهم في نقل المعلومات من الذاكرة قصيرة المدى إلى الذاكرة طويلة المدى، ما يرفع من سويّة التحصيل الدراسيّ، ويجعل استيعاب الطالب للدرس أكثر استدامة، إذ يساعده في الربط بين المادّة النظريّة والتطبيق العمليّ.

2. ترسيخ الانضباط الذاتيّ والمسؤوليّة

تبني الإدارة الصفّيّة الفعّالة حالة من الانضباط الذاتيّ لدى الطلّاب، فعندما يشعر الطالب بأنّه جزء من عمليّة اختيار الأنشطة وإدارة النقاش في الحصّة، ينمو لديه شعور بالمسؤوليّة تجاه القوانين الصفّيّة. هذه النتيجة تحوّل المعلّم من مراقب لأخطاء الطلّاب إلى ملهم للإبداع، إذ يحرص الطلّاب على استمرار الانضباط الذاتيّ لضمان نجاح الحصّة.

3. رفع دافعيّة التعلّم والحدّ من ظاهرة التسرّب الدراسيّ

عندما تتحوّل الحصّة الدراسيّة إلى بيئة محفّزة، يزداد شغف الطلّاب بالدراسة، وتتحوّل عمليّة التعلّم من عبء إلى متعة. فالتنوّع في أساليب التدريس واستراتيجيّات إدارة الحصّة الصفّيّة، يسهم في تلبية احتياجات الطلّاب ويراعي الفروق الفرديّة بينهم، ما يجعل كلّ طالب يشعر بالنجاح. هذا الشعور يقلّل من نسب الغياب والتسرّب الدراسيّ، ويزيد من حبّ الطالب للمدرسة والدراسة، ما يبني بيئة تعليميّة إيجابيّة ومتوازنة.

دور الإدارة الصفّيّة الفعّالة في تنمية شخصيّة الطالب

يعدّ الربط بين أساليب الإدارة الصفّيّة الفعّالة وبناء شخصيّة الطالب وتشكّلها، أساسًا من أساسات البيئة التربويّة والتعليميّة، إذ يتعلّم كيف يسأل ويحاور ويستفسر، وهكذا تتشكّل لديه شخصيّة المحاور والمتكلّم. كما يمكّنه من المشاركة في الإجابة عن أسئلة المعلّم، ويعزّز من قدرته على التعلّم الجماعيّ والعمل ضمن الفريق، فيكون قادرًا على تحقيق الإنجازات مهما كان مستواه الدراسيّ.

وعندما يتواجد الطالب في مواقف تمثيل الأدوار، فإنّه يتدرّب على اتّخاذ القرارات لثقته بقدرته على إنجاز نشاطات الدرس، فيحقّق نتاجات التعلّم، ويقلّ خوفه من المبادرة في المشاركة في الصفّ، وينمّي قدرته على التكيّف مع محتوى الدرس. يطوّر هذا شخصيّته لاكتساب مزيد من المعارف والمعلومات التي تجعله قادرًا على تحديد مساره الدراسيّ في المستقبل، ويظهر في اختيار تخصّصه الأكاديميّ، سواء في المرحلة الثانويّة أو الجامعيّة.

***

بناءً على ما سبق، أجد أنّ الطلّاب الذين يدرسون في بيئة صفّيّة ذات إدارة فعّالة يتخلّصون من التوتّر والقلق، ويصبح بإمكانهم التعبير عن أنفسهم من دون خوف من الانتقاد أو السخرية التي قد تصدر عن زملائهم في الصفّ، ما يؤكّد على أنّ الإدارة الصفّيّة الفعّالة تعدّ حافزًا إيجابيًّا لتنمية شخصيّة الطالب، فتجعله يكتسب مهارات جديدة، أو يطوّر مهاراته الحاليّة، ليتحوّل الصفّ من مجرّد قاعة لتلقّي المعلومات إلى ورشة عمل حقيقيّة تصقل شخصيّة الطلّاب، بدعم وتشجيع وتحفيز من المعلّم.

مجد مالك خضر
معلّم ثقافة ماليّة وتربية مهنيّة
الأردنّ